

## دراسة رثاء الحسين (ع) في أشعار الإمام السجاد (ع)

معصومه نعمتی قزوینی\*

پدرام علیمردی\*\*

### الملخص

إن من يدرس رثاء الإمام الحسين (ع) في الشعر، يجد فيه مضامين تنبئ عن وقائع عظيمة وخطوب فادحة محرقة تبين مدى تأثر الشعراء بحادثة الطف وما جرى للإمام الحسين (ع). فجاءت هذه المضامين فيها مملوءة بالصور تحكي عن هذه الوقائع وما عاناه الإمام (ع) وأصحابه. فقمنا في هذه المقالة بدراسة الرثاء الحسيني خلال أشعار الإمام السجاد (ع) على أساس المنهج الوصفي - التحليلي فنجد فيها مضامين أهمها ذم الناس وإثارة روح الندامة بينهم لتحريضهم على القيام، كما تجلّى فيها بعض خصائص العصر كجور الحكام الأمويين ومظلومية آل بيت الرسول (ص) وأيضاً ميل الناس إلى الدنيا وحبّها وتحذيرهم من الغفلة التي أصيبوا بها.

الكلمات الرئيسية: الشعر العربي، الأدب الملتزم، الرثاء، الإمام الحسين (ع)، الإمام السجاد (ع).

### ١. المقدمة

الرثاء مدح الميت وبكاؤه والذي يرمى الى تحقيقه إفراغ النفس من الحزن واستلهاام العبرة من تغلب الموت على الحياة، لإحساس الرائي على نحو من الأنحاء بأن موت المرثي الواقع إنذار بموت متوقّع (طلبيات، ٢٠٠٧: ٥٩٢).

\* أستاذة مساعدة، بأكاديمية العلوم الإنسانية و الدراسات الثقافية طهران (المسؤول عن المقالة) m.n136089@yahoo.com

\*\* ماجستير في فرع اللغة العربية وآدابها، بأكاديمية العلوم الإنسانية و الدراسات الثقافية طهران

alimoradipedram@gmail.com

تاريخ الوصول: ١٣٩٢/١/٢٤، تاريخ القبول: ١٣٩٢/٣/٥

۱۰۰ دراسة رثاء الحسين (ع) في أشعار الإمام السجاد (ع)

أما العرب في العصر الجاهلي فقد كانوا يتجلّدون و ينتفضون من فتور الحزن و يعدّدون مناقب الميّت. فإن كان الفقيّد قد مات حتف أنفه صبروا على ما أصابهم وإن كان قتيلاً هدّدوا القتال بأخذ الثأر. فلمّا بزغ الإسلام خلع على الموت فلسفة أخرى. فمن مات حتف أنفه فموته انتقال من الفانية إلى الباقية و يوم القيامة يُبعث و يُحاسب و ممن قُتل في ساحة الجهاد فهو شهيد، والشهيد حيٌّ يرزق عند ربّه (المصدر نفسه: ۵۹۳).

ومن أقدم ضروب الرثاء هو رثاء الأقارب و ربما كان من أعمقه إحساساً و أصدقّه تعبيراً لأنّ الحزن الذي هو باعثه، يتفجّر على نحو عفوى أولاً و يخلو من المجاملة المتكلفة و الانفعال بالعدوى أو التظاهر به ثانياً (المصدر نفسه: ۶۰۷).

لأنّ الرثاء كان من أقدم المضامين في الشعر و الأدب، نجد كتباً كثيرة و مقالات عديدة دوّنت في هذا المجال. ولرثاء الإمام الحسين (ع) خاصّة أثر عميق في النفوس و في أدب المجتمعات لاسيّما المجتمعات الإسلامية؛ ولقد أثارت هذه الفاجعة، الأشجان و الأسى حيث أدّت إلى ازدهار الرثاء في ذلك العصر و العصور التي تلتها و استمرّ إلى يومنا هذا. ولالإمام السجاد (ع) ولعقيلة بنى هاشم زينب الكبرى (س) من بين أسرة الإمام الحسين (ع) دور هام في تسجيل الحادثة و إثارة الثورات المتتابة بعدها.

فكانت واقعة شهادة الإمام الحسين (ع) و أصحابه و إيسارة أسرته من بين الفجائع التاريخية أشدّ أثراً في النفوس المستعدّة كما روى الإمام الصادق (ع) من النبی الأکرم (ص): «إنّ لقتل الحسين (ع) حرارة في قلوب المؤمنین لا تبرّد أبداً» (نوری، ۱۴۰۷: ۱۰ / ۳۱۸). و من الطبیعی أنّ هذا التأثير أشدّ و وضوحاً في كلام الإمام السجاد (ع) - الذي شاهد هذه الحادثة بأمّ عينه. فرثى الإمام (ع) أبيه في أشعار مفعمة بالحزن و الأسى.

فالإمام السجاد (ع) ما كان شاعراً إلاّ أنّه استخدم الشعر وسيلة لخدمة أهدافه الإلهية فلم يتخذ الشعر غاية و هدفاً بل تعامل معه بنهجين أحدهما يكمل الآخر:

الأول: قام بتهديب الشعر عبر الارتقاء بالشاعر و تهذيب أفكاره و سلوكه بالمضامين الحكيمية في أشعاره كما يقول و يحذّر المخاطب من الاتّكال على الدنيا الفانية:

ألا إنّ الرّکونَ على غرورٍ إلى دار الفناء مِنّ العناءِ

(الخباباني، ۱۳۵۷: ۳۰)

الثاني: جعل الشعر في خدمة القضايا التي تصب في بعض الفتور من حياته، فالشعر عنده أداة من أدوات التبليغ و التذكير و كان القاسم المشترك بين كلامه و ما يستشهد به من الشعر هو تحريك العقول و عواطف الناس و إيقاظ ضمائرهم و إثارة صحوة الروح فيهم.

معصومه نعمتی قزوینی و پدرام علیمرادى ۱۰۱

ورثاء الإمام الحسين (ع) من أحسن المضامين لهذه الأهداف؛ فاستخدمه الإمام السجاد (ع) كثيراً بلسان النثر والشعر. هناك بعض الكتب التي قد جمعت فيها الأشعار المنسوبة إلى الأئمة (ع) كـ «التحفة المهدوية» للشيخ محمد علي التبريزي الخياباني و «ديوان أهل البيت» لعلي حيدر المؤيد و هذان المؤلفان قد جمعا هذه الأشعار من مصادر قديمة شتى كـ «لاحتجاج» للطبرسي أو «المناقب» لابن شهر آشوب.

وجدير بالذكر أن أكثر هذه المصادر قام بشرح الآيات على الاختصار ولم تدرسها دراسة بلاغية أو لغوية. والدكتور حسن عبداللهي في كتابه المسمى بـ «الترجمة والشرح للأشعار المنسوبة إلى فاطمة الزهراء (س) والأئمة المعصومين عليهم السلام» قد ترجم قسماً من هذه الآيات فقط. وللإمام السجاد (ع) ديوان حققه ماجد بن أحمد العطية. إذ جمع المؤلف في هذا الكتاب ۳۸۷ بيتاً من الآيات المنسوبة إلى الإمام السجاد (ع). ولا يخفى أن بعض هذه الآيات غير مقطوعة الصدور عن المعصوم بل هناك خلاف علمي في أن الأئمة كانوا ينشدون الشعر أم كانوا يستشهدون به و هذه مسألة لنا بصدد تفصيلها في هذا المجال.

فرغم دراسة واقعة الطف وما بعدها في عدة كتب أو رسالات لا نجد دراسة خاصة حول الرثاء الحسيني في أشعار الإمام السجاد (ع) لأن أكثر الباحثين قد طالعوا نثر الإمام (ع) من الأدعية و الخطابة. ففي هذه المقالة قمنا بقراءة جميع الآيات المنسوبة إلى الإمام (ع) ومن ثم دراسة الآيات ذات الصلة بموضوع بحثنا هذا. ففيما يلي نقوم بدراسة بعض الجوانب للرثاء الحسيني في هذه الأشعار.

## ۲. جوانب الرثاء الحسيني في أشعار الإمام السجاد (ع)

### ۱.۲ إثارة روح الندامة بين الناس و تحريضهم على القيام

لأشعار الإمام السجاد (ع) وخطبه أثر في تحريض الناس على طلب الثأر، فصور الإمام (ع) روح الندم في الناس بعد أن تركوا نصره الإمام الحسين (ع)، خاصة بعد أن كانت الكوفة بعد واقعة كربلاء تتحسس أكثر من غيرها ثقل الذنب ومرارة الندم، باعتبارها طرفاً مباشراً ومسؤولاً في قضية الإمام الحسين (ع)، فهي التي ألحّت عليه بالخروج إلى أرض الثورة التي تتعطش إلى قائدها المنتظر، ثم تقاعست في أخرج الظروف عن الالتزام بما وعدت به والوفاء بالعهد الذي قطعه على نفسها. فأخذ أنصار الثورة الحسينية، يجتمعون بعد مقتل الإمام الحسين (ع) مباشرة في إطار من السرية التامة، وعند الاجتماع يعقدون مناقشات أشبه ما تكون بالنقد الذاتي، وذلك

لمحاسبة أنفسهم على التقصير الذي أظهره إزاء الحسين (ع)، والتشاور على كيفية التكفير عن الذنب وغسل العار الذي لحق بهم نتيجة هذا التخاذل، فبدأت ثورة التوابين بعد شهادة الإمام الحسين (ع) في الكوفة.

وفيما يلي نذكر بعض المراثي التي نظمها الإمام السجاد (ع) في رثاء الإمام الحسين (ع) بما يصور فيها بعض المصائب ويبعث روح الندم بين الناس:

سادَ العُلُوجُ فما تَرْضَى بِذا العَرَبُ      وصارَ يَقدُمُ رَأْسَ الأُمَّةِ الذَّنْبُ  
يا لَرَجالِ وما يَأْتى الزَّمانُ به      مِنَ العَجيبِ الذى ما مِثْلُه عَجَبُ  
آلِ الرُّسولِ على الأَقْتابِ عارِيَّةُ      وآلُ مروانَ تَسرى تحتَهُم نُجَبُ

(أحمد العطية، ١٤٢٣: ٢٦)

أشار الإمام (ع) في البيت الأول بعدم رضا العرب بحكومة الأمويين وهذا يعنى أنهم غضبوا الحكم وضاعوا حق آل الرسول (ص)، فاستعمال لفظ «العرب» يدل على غرض الإمام في بعث روح الحمية والغيرة بين الناس ومن ثم تحريضهم على القيام وطلب الثأر باستعمال أسلوب الاستغاث، كما يصف كيفية إسارة أهل بيت النبوة كى ينبئه الناس الغافلين، فالرثاء حزين تخالطه روح الهجاء وصدق العاطفة.

ثم انشد:

ليتَ شِعرى هل عاقلٌ فى الدِّياجى      باتَ مِنَ فَجعةِ الزَّمانِ يُناجى  
أنا نَجِلُ الامامِ ما بالُ حَقّى      ضائعٌ بينَ عُصبةِ الأَعلاجِ

(المصدر نفسه: ٣٠)

يرسم الإمام (ع) فى مرثيته غربته بما تجلّت فيها روح التحريض على طلب حق الامام (ع) بذكر نسبه لأنه كان من وُلد الإمام (ع) وسبط الرسول (ص)، ففى هذه القصيدة والقصيدة الماضية يهجو الإمام (ع) بنى أمية ويسمّيهم بالعُلوج والأعلاج لبيان كفرهم وهجاءهم لأنّ العِلج بمعنى الكافر مطلقاً أو الكافر العجمي.

## ٢.٢ دمّ الناس و عتابهم

إنّ مراثي الإمام السجاد (ع) وأسارى حادثة الطف مليئة بدمّ المسلمين خاصة أهل الكوفة و تقبيحهم كما أنشدت زينب الكبرى (س) أبياتاً لتوبيخهم على تخاذلهم ونكتهم وتحذّره من أن يسأل رسول الله (ص) عنهم يوم القيامة خاصة بعد أن أوصاهم بمودتهم وحبهم!

معصومه نعمتي قزوینی و پدرام علیمرادى ۱۰۳

ماذا تقولون إذ قال النبىُّ لَكُمْ  
بعترسى وبأهلى بعد مُتَقَدى  
ماذا فعلتمُ وأنتم أخيرُ الأممِ  
منهم أسارى وقتلى ضُرِّجوا بدمى  
إن كانَ هذا جزائى إذ نصَّحتُ لكم  
أن تخلفونى بسوءٍ فى ذوى رَحْمى<sup>١</sup>

(ابن شهر آشوب، ۱۴۳۲: ۱۱۵/۴)

فالرثاء الحزين المفعم بالهجاء، مشهود فى هذه الأبيات مع قوة البيان والإحكام فى العبارة لأنها تصوّر مصائب أهل البيت بعد فقدان الرسول الأكرم (ص) وخاصة بعد أن أوصى الناس بحبهم كأجر لرسالته.<sup>٢</sup>

كما أنشد الإمام السجاد (ع):

لا غروان قُتل الحسينُ و شَيْخُهُ  
فلا تفرحوا يا أهل كوفةَ بالذى  
قد كانَ خيراً من حسين وأكرماً  
أصيبَ حسينُ كان ذلك أعظماً  
قتيلٌ بشطِّ النَّهرِ نفسى فِداؤه  
جزاءُ الذى أرداه نارُ جهنما

(المصدر نفسه: ۱۱۵)

فأنشد الإمام (ع) هذه القصيدة لما خرج من الفسطاط<sup>٣</sup> ودخل الكوفة و وبَّخ أهله على عذرهم ونكتهم لأنهم قتلوا الحسين (ع) كما قتلوا أباه الذى كان خيراً منه. فبشارة (لا تفرحوا) تشير إلى شدة جهل الناس لأنهم قتلوا سبط نبيهم ثم فرحوا بفعلهم. كما أشار الإمام (ع) إلى فخامة شأن أبيه بقوله (نفسى فداؤه) من جهة وعظمة ذنب الناس فى قتله من جهة أخرى. و أيضاً نجد هذه المضامين فى خطبته التى أنشأها قبل هذه الأبيات:

هيهات أيها الغدرة المكرة حيل بينكم وبين شهوات أنفسكم. أتريدون أن تأتوا إلى كما أتيتم إلى آبائى من قبل؟! كلاً وربِّ الراقات إلى منى فإن الجرح لما يندمل! قُتل أبى بالأمس واهل بيته معه فلم ينسنى نُكلُ رسول الله وتكل أبى وبنى أبى وجدى، شقَّ لها زمى ومرارته بين حناجرى وحلقى وغصصه تجرى فى فراش صدرى و مسألتي ألا تكونوا لنا ولا علينا (الطبرسى، ۱۴۲۲: ۳۰۶/۲).

فبيتهم الإمام السجاد (ع) أهل الكوفة بالغدر ونكت الأيمان كما كانوا فى زمن أمى المومنين (ع) فقتلوه فى محراب عبادته وهو أشرف الائمة والأوصياء. وكلمة شطِّ النَّهر فى البيت الأخير رمز لعطش الإمام الحسين (ع) فى يوم عاشوراء ومنعه من الماء، ثم يوعددهم الإمام (ع) بعذاب الجحيم و يذكرهم بقصر الأفراح.

و أنشد الإمام (ع) فى هذا النوع من الرثاء الممزوج بالهجاء:

يا أُمَّةَ السَّوِّءِ لا سَقِيًّا لِربِّعِكُمْ  
يا أُمَّةَ لَمْ تُرَاعَ جَدُّنَا فِينَا  
لو أَنَّنَا ورسولَ اللَّهِ يَجْمَعُنَا  
يومَ القِيَامَةِ ما كنتم تَقولونا  
تسَيِّرونا على الأَقْتابِ عارِيَةً  
كأنَّنا لَمْ نُشَيِّدْ فيكمُ دينَا

يحتج الإمام السجاد (ع) أمة المسلمين ويشير إلى محاسبتهم يوم القيامة وسؤالهم رسول الله (ص) عن قتل ولده وهتك حرمة. كما يلعن هؤلاء الكفرة في البيت الأول لأنه يعتقد أن هذه الأمة تستحق جميع المصائب والبلايا فيدعو عليهم بالجذب كما منعوا الحسين (ع) وأصحابه من الماء. ثم يتبّه الناس في البيت الثالث و يذكرهم بأن آل بيت الرسول (ص) رفعوا راية الهدى وعلم الدين بينهم لكنهم ظلّموا وقتلوا شكراً لهذه النعمة. ثم يواصل الإمام (ع) أبياته قائلاً:

بنى أمية ما هذا الوقوف على  
تلك المصائب لا تلبون داعينا  
تصفقون علينا كفكم فرحاً  
وأتم في فجاج الارض تسبوننا  
أليس جدى رسول الله ويحكّم  
أهدى البرية عن سبل المضلينا  
يا وقعة الطف قد أورتني حزناً  
والله يهتك أستار المسيئينا

(القندوزى، ١٤١٦: ٣/٨٦)

الاحتجاج وعاطفة الغضب من أبرز سمات هذه الأبيات لأن الإمام (ع) يهدد بنى أمية وخاصة قتلة الإمام الحسين (ع) فيها. ونرى في أسلوب الإستفهام في البيت الأول نوعاً من التوبيخ وايضاً إعلان كفر بنى أمية وهذا مشهود من قوله: «لا تلبون داعينا» والمقصود منه هو النبي (ص). والرثاء الحزين مشهود حينما يشير الإمام (ع) إلى فرح الأذلة وغربة الأعزة في البيت الثانى كما استفاد من عبارة «وقعة الطف» كرمز لبيان الكآبة والأسى.

### ٣.٢ هجو بنى أمية

الهجاء في الإصطلاح غرض من أغراض الشعر يتناول فيه الشاعر بالذمّ والسخر و التحقير والتشهير عيوب خصمه المعنوية والجسدية. والدافع إلى الهجاء هو البغض المشفوع بالتهديد. ويبدو أن العاطفة التي تحرك الهجاء أقرب إلى طبيعة العربى البدوى ولكن الإسلام هدبها وارتنقى بها. فاسبغ عليها معنى دينياً (طليعات، ٢٠٠٧: ٥٣٣).

فاستفاد الإمام (ع) من هذا الغرض في مراتبه مراراً لتحقير خصومهم ومعانديهم. فأكد (ع) على نسبه و نسب بنى أمية لبيان فخامة شأنه من جهة ودناءة شأن خصومه من جهة أخرى قائلاً:

يُرْوَعُهُم بِالسَّبِّ مَنْ لَا يَرْوَعُهُ      سَبَابٌ وَلَا رَاعَ النَّبِيِّينَ رَائِعٌ  
وَدَائِعُ أَمْلَاكِ وَأَفْلَاكِ أَصْبَحُوا      لَجُورِ يَزِيدِ ابْنِ الدَّعَى وَدَائِعُ  
فَلَيْتَكَ يَا جَدَاهُ تَنْظُرُ حَالَنَا      نُسَامُ وَنُشْرَى كَالِإِمَاءِ نُبَاعِ

(سپهر، ۱۳۲۴: ۲ / ۲۰۴)

ينسب الإمام (ع) نفسه إلى سلالة الأنبياء (ع) ويتهم يزيد في نسبه لتفجير ثورة عاطفية بين الناس من خلال تعريف نفسه لهم، ثم ينادى الرسول (ص) بلفظ «يا جداه» ليؤكد على نسبه ويشكو إليه من المصائب التي أصاب أهل بيته، كسبهم وাসارتهم. كما استخدم لفظ «الإماء» لبيان تحقير شأنهم. في قصيدة أخرى، يخاطب الإمام (ع)، رسول الله (ص) منادياً «يا جداه» مرة أخرى ليذكر الناس أنه من أولاد الرسول (ص) ويصف بنى أمية بـ «علوج أمية».

أُنَادِيكَ يَا جَدَاهُ يَا خَيْرَ مُرْسَلٍ      حَبِيبِكَ مَقْتُولٍ وَنَسْلُكَ ضَائِعٍ  
أَقَادُ ذَلِيلًا فِي دِمَشْقٍ مُكْبَلًا      وَمَا لِي مِنْ بَيْنِ الْخَلَائِقِ شَافِعٍ  
لَقَدْ حَكَمُوا فِيْنَا عُلُوجَ أُمِيَّةٍ      فَقَدْ ظَهَرُوا فِيْنَا عَظِيمَ الْبِدَائِعِ

(المصدر نفسه: ۲ / ۲۵)

فيشير الإمام السجاد (ع) في هذه الأبيات إلى ثلاثة مصائب كبرى بلسان الرثاء الحزين:

۱. شهادة الإمام الحسين (ع).

۲. إساءة أهل بيت النبوة وغربتهم بين الناس.

۳. رواج البدع بيد الحكام الفاسقين.

ثم خاطب الإمام (ع) يزيد في المجلس قائلاً:

لَا تَطْمَعُوا أَنْ تُهَيِّنُونَا فَنُكْرِمَكُم      وَأَنْ نَكْفَ الْأَذَى عَنْكُمْ وَتُؤَدُونَا  
وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّا لَا نَحْبُبُكُمْ      وَلَا نَلُومُكُمْ أَنْ لَا تُحَيِّنُونَا

(ابن شهر آشوب، ۱۴۳۲: ۴ / ۱۷۳)

كان الإمام السجاد (ع) ينطق عن الله تعالى ويستشهد في بعض أشعاره بمنطق القرآن الكريم وهو منطق الإعجاز لذلك كان بسهولة يتغلب على الجبارة والطغاة ويغضهم ويذلهم في عقر دارهم؛ فمن يقرأ هذه الأبيات بدقة يرى أنها تتضمن بعض المضامين القرآنية التي قد استفاد منها الإمام (ع) في هجو يزيد، إذ يؤكد في البيت الأول أن أهل البيت لا يُخذلون كما قال الله تعالى في محكم كتابه: «والله العزة ولرسوله وللمؤمنين» (المنافقون: ۸). ثم يشير في البيت الثاني إلى أن أهل البيت وبنى أمية هما فريقان لن يتحدا معاً أبداً ولن يحب أحدهما الآخر كما جاء في الآية

الأخيرة من سورة المجادلة: «لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ».

## ٤.٢ تسجيل واقعة كربلاء و مصائب آل الله

يرثي الإمام (ع) أباه في بعض آياته ويصوّر ما حدث في يوم عاشوراء مستغاثاً جدّه:

إلى جدّنا نشكو عُدَاةً تَحَكَّمُوا      ونالوا بنا والله كلُّ مُنَاءِ  
ويا جدّنا أَرَدُوا أباي متذللاً      قتيلاً وفي الأحشاء حَرَ ظَمَاءِ  
وقد رفعوا رأساً فوق ذابِل      كما البدرُ يبدو في علوِّ سَمَاءِ

(الإسفرابني، ١٢٩٦: ٦٨)

ذكر الإمام (ع) في هذه الأبيات، شدة عطش أبيه الحسين (ع) يوم عاشوراء إذ ذُبح عطشان ثم هجم الأعداء إلى خيام النسوان بعد القتال ولم يكن لهنّ أَى ناصر. ثم في البيت الثالث شبّه رأس أبيه (ع) بالبدر وهو القمر المتلألئ في الليل، كأنه أراد بهذا التشبيه أن يبيّن ظلمة جور الحكام وضلال الناس بسبب الغفلة والتخاذل.

بذل الإمام (ع) أقصى جهده في إحياء واقعة الطفّ طيلة حياته كما روى أحد غلماناه، بعد سنوات مديدة من حادثة كربلاء «أنه وضع جبهته في الصحراء على صخرة صماء فنأح كثيراً و بكى غزيراً وقال في السجدة ألف مرة» لا إله إلا الله حقاً حقاً لا إله إلا الله تعبداً ورقاً لا إله إلا الله إيماناً و تصديقاً، «فلما رفع رأسه قلت له يا سيدي أوليس لهَمْك انتهاء ولا لبكائك انقضاء فقال لي ويحك إن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم كان نبياً وابن نبيّ وله اثنا عشر ابناً فغيب الله واحداً منهم فشاب رأسه من الحزن وذهب بصره من البكاء وابنه حيّ في دار الدنيا وأنا رأيتُ أبي وأخي و سبعة عشر من أهل بيتي صرعى مقتولين فكيف ينقضى حزني ويقلّ بكائي؟» (ابن طاووس، ١٣٢١: ١٢٢).

فأنشد الإمام (ع) الأبيات التالية:

إِنَّ الزَّمَانَ الَّذِي قَدْ كَانَ يَضْحَكُنَا      بِقُرْبِهِمْ صَارَ بِالتَّفْرِيقِ يَبْكِينَا  
حَالَتْ لِقَدْحِهِمْ أَيَامُنَا فَعَدَّتْ      سُوداً وَكَانَتْ بِهِمْ بِيضاً لِيَالِينَا  
فَهَلْ تَرَى الدَّارَ بَعْدَ البُعْدِ أَنَسَةً      أَمْ هَلْ يُعُودُ كَمَا قَدْ كَانَ نَادِينَا  
فَوَالَّذِي حَجَّتِ الرُّكْبَانَ كَعْبَتَهُ      وَمَنْ إِلَيْهِ مَطَايَا الكُلِّ سَاعُونَا  
لَقَدْ جَرَى حُبُّكُمْ مَجْرَى دَمِي فَدَمِي      مِنْ الفِرَاقِ جَرَى سُؤلاً لِبَارِينَا

(المصدر نفسه)



بدأ الإمام (ع) قصيدته بالمقدمة الطللية كالشعراء العرب القدامى الذين يبحثون عن أحبّتهم في الخبرة ويتحسّرون على فراقها. قد أحيى الإمام (ع) هذه الحادثة بعد زمن طويل بألفاظ رقيقة ذات عاطفة حزينة صدرت عن قلب دام في فراق الأب وأسرته كأنها غضة له. وجزالة كلام العرب وأنواع الصنائع الأدبية الأصيلة مشهودة في الأبيات كالطباق في كلمات «بُضحك» و «يُكسى» أو «سوداً» و «بيضاً» و «أيام» و «ليالي»، والجناس في كلمات «بعد» و «بُعد» أو في «جَرى» و «مَجرى» في البيت الأخير كما استخدم الإمام (ع) المقابلة في البيت الثاني بواسطة هذه الطباقات. ثم يرثي الإمام أباه قائلاً:

هو الزمان فلا تَفنى عجايبه	عن الكرام ولا تَهدي مصائبه
فليت شعري إلى كم ذا يُحاربنا	صُروفه وإلى كم ذا نُحاربُه
تُسيرونا على الاقتاب عارية	وسائق العيس يحمي عنه غارُه

(المجلسي، ١٤٠٣: ٤٥ / ١٢٧)

تتضمّن هذه المرثية، الشكوى من الزمن وبيان مصائب الدهر التي لا تزال تُصيب الكرام بمقارنة بين حال آل محمد (ص) وبنى أمية. استفاد الإمام (ع) عبارة «على الاقتاب عارية» مراراً وهذا يعني أنّ هذا وهنّ عظيم لآل الله، كما يصوّر حمل السبايا في ذاك الزمن. وله أيضاً:

وقد حَمَلونا فوق ظَهْر جِمالهم	بغير وِطاءٍ جدِّنا وِغِطاءٍ
لَطافوا بنا شرقَ البلادِ وغربها	جميعهم يَهجوننا بهجاءٍ
وجاؤوا بنا ذُلًّا دَمشقَ يزيدهم	وقد أوقفونا عنده بِسواءٍ
وقال لقد نلتُ المُنَى كلَّ مَقصدٍ	بقتل أخيكُم قد بلغتُ هَنائي

(الإسفرائيني، ١٢٩٦: ٦٨)

تتفجّر العاطفة في هذه الأبيات حسرةً وألماً وحزناً لإسارة آل بيت الرسول (ص). وقد زاد الإمام (ع) بتصويره الجمال العاريات في وقع الأبيات وتأثيرها في النفوس كما أشار إلى عداوة بنى أمية لبني هاشم. ثم يصوّر محنته في الإسارة قائلاً:

أقَادُ ذليلاً في دَمشقَ كَأنتي	مِن الرِّجِّ عيْدٌ غابَ عنه نصيرُه
ووجدتُ رسولَ الله في كلِّ مشهدٍ	و شَيْخِي أميرَ المومنينَ وزيرُه

فيا ليت لم أنظر دمشقاً ولم يرانى يزيدُ فى البلاد أسيره

(بحراني، ١٢٩١: ٤/ ١٠٨)

أكد الإمام (ع) على أن هذه المصيبة كانت عظيمة لأن ابن خبير المرسلين وسيد الوصيين أسير كعبد زنجى بيد أردل الأشخاص. فالتأكيد هنا على ثلاثة جوانب و هي: من أصابتهم هذه المصيبة أولاً وعلى من سببها ثانياً وعلى نفس الداهية ثالثاً، كما قيل إنه لما سُئل الامام (ع) عن أشدّ الموافق، قال: «الشام الشام الشام» (شريف كاشانى، ١٣٩٠: ٤١٢).

أناجيك يا جداه يا خير مُرسل	حسينك مقتولٌ ونسلُك ضائعُ
أناجيك محزوناً عليلاً مُوجلاً	أسيراً وما لى حامياً ومدافعُ
سُبينا كما تسبى الإماءُ ومسننا	من الضرِّ ما لا تحتمله الأضالعُ
أيا جدُّ يا جداه بعدك أظهرت	أميةً فينا مُكرهاً والشنائعُ

(سبهر، ١٣٢٤: ٢/ ٢٧٦)

يتَّجه الإمام (ع) فى هذه الأبيات نحو جدّه رسول الله (ص) و يقصّ عليه قصّته المؤسفة. فتكرار كلمة «جدّ» وسرد العبارات بأسلوب النداء يضيفان للأبيات إيقاعاً جميلاً إذ يرسم منظراً دقيقاً سيطر عليه الحزن وصدق العاطفة. كما أكد على نسبه بتكرار ضمير الخطاب فى «أناجيك»، «حسينك» و «نسلُك» لبيّن مدى غفلة الناس وعظمة ذنبهم فى قتل أسرة الرسول (ص).

## ٥.٢ التذكير بحق أهل البيت (ع)

إضافة إلى بيان المصائب، قد أكد الإمام السجاد (ع) فى بعض مرثيته، على تضييع حق الائمة؛ وهو فى الواقع تبّه المسلمين بأن الخلافة لا تنبغى إلاّ للائمة الهداة (ع). كما أنشد قاتلاً:

لكم ما تدعون بغير حقّ	إذا ميز الصّاح من المراض
عرفتم حقنا فجدتمونا	كما عرف السّواد من البياض
كتاب الله شاهدنا عليكم	وقاضينا الإله فنيع قاضى

(ابن شهر آشوب، ١٤٣٢: ٤/ ١٧٤)

أشار الإمام (ع) من خلال هذه الأبيات إلى تضييع حقهم فى الخلافة رغم وضوحه؛ وهذا يدلّ على شدة غفلة الحكّام عن الحق لأنهم رأوه واضحاً جليلاً كالشمس ولكن ما اتبعوه! ومما أشار

إليه الإمام (ع) هي مظلومية أهل البيت لأنه يهدد الحكام الظلمة بإحقاق حقه يوم القيامة لأن هذا الأمر كان مستحيلًا في ذاك الزمن. ومن الطريف أنه (ع) جعل القرآن شاهده فيما جرى لآل الرسول (ص) للردّ على من يتهموهم في دينهم بعد واقعة الطفّ.

و كرّر الإمام (ع) هذا الوعيد في قصيدة أخرى حيثما مكانة أهل البيت و مواليهم و مُعاديهم:

لنحن على الحوض رُوّادُه      نذودُ ونسقى رُوّادَه  
وما فازَ مَنْ فازَ إلينا      وما خابَ مَنْ حُبنا زادُه  
ومَنْ سرّنا نالَ مِنّا السُرور      ومَنْ ساءَنا ساءَ ميلادُه  
ومَنْ كانَ غاصبنا حَقّنا      فيومُ القيامةِ ميعادُه

(المجلسي، ۱۴۰۳: ۱۴۶ / ۹۲)

يذكر الامام (ع) أحوالهم بعد الإسارة و يصور ظلم بنى امية في حقهم لما غضبوا الحكم، كما يشير إلى عدم تأسيهم بحلال الله و حرامه بل تحريم حلال الله و تحليل حرامه و الأفجع هو إباحة حريم أهل البيت و سفك دمايهم. فطلب من رسول الله (ص) أن يأخذ حقهم يوم القيامة وهذا يعنى أن الأمويين لم يألوا جهداً في إيذاء أهل البيت و تعذيبهم بأشدّ العقوبات:

فخذُ حَقّنا يا جدّنا منه فى غدٍ      وفى يوم حشر يوم فصل قِضاءِ  
غدا يَسْتَحِيلُ الآنَ كُلُّ مُحَرَّم      يَبِيحُ بأهل البيت سفك دِماءِ  
إذا يَسْتَبِيحُ الآنَ آلَ مُحَمَّد      وَيَسْقَى لأهل البيت كلَّ رِداءِ  
سُيُوفُهُمْ قد جردت رقابنا      فىا وَيَلْهَمُ مِنْ حَرِّ نارِ لَظاءِ

(الإسفرائينى، ۱۲۹۶: ۶۸)

### ۳. النتيجة

أساساً على ما تقدّم في هذا البحث، تبيّن لنا أنّ رثاء الحسين (ع) في أشعار الإمام السجاد (ع) امتاز بميزات خاصة هي:

۱. يرثى الإمام (ع) أيه المظلوم و يرسم جوانب مأساته مع قوة البيان وصدق العاطفة بسبب قرابته أولاً و حضوره في المعركة ثانياً.

۲. صور الإمام (ع) جوانب المأساة تصويراً دقيقاً حيث استفاد من الفنون الأدبية كالتشبيه والجناس والطباق و ... ومن بعض الأساليب كالنداء والاستغاثة والتكرار.

۳. يمكن اعتبار هذا اللون من الرثاء تمثيلاً للحياة الاجتماعية بما تضمّن من معان تتجدّر من

الوقائع السياسية والاجتماعية آنذاك كخوض الناس في الغفلة والتخاذل بسبب ميلهم إلى الدنيا وظواهرها.

٤. كان رثاء الإمام مصبوغاً بصبغة هجائية يعكس جور الحكام الأمويين في غضب الخلافة و سفك دماء آل الرسول (ص).

٥. لا يكتفى الإمام (ع) بذكر مصائب اهل البيت (ع) بل بذل أقصى جهده من خلال مرثيته لبعث روح الحمية والغيرة بين الناس كي يثوروا على جور الحكام.

٦. معظم مرثي الإمام السجاد (ع) في أبيه المظلوم نُدبٌ لا تخلو من تأبين بشكل عام وقد يأتي فيها الغزاء.

## الهوامش

١. هذا الشعر ينسب إلى الإمام السجاد (ع) و إلى ابي الأسود الدؤلي ايضا.
٢. كما جاء في الآية ٢٣ من سورة الشورى «قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى».
٣. الفسطاط هي المدينة التي بناها عمرو بن العاص عقب فتح مصر عام ٦٤١ م وهي تقع بمقربة من حصن بابليون تقع على ساحل النيل في طرفه الشمالي الشرقي، قبل القاهرة بحوالي ميلين، وكان النيل عندها ينقسم إلى قسمين. وموضعها كان فضاءً ومزارع بين النيل والجبل الشرقي ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن بابليون الذي يطل على النيل من بابه الغربي الذي يعرف بباب الحديد.

## المصادر

### القرآن الكريم.

- ابن شهر آشوب، محمد بن علي (١٤٣٢هـ.ق). مناقب آل أبي طالب، ج ٣ و ٤، قم: مكتبة الحيدرية.
- ابن طاووس، علي بن موسى (١٣٢١هـ.ق). اللهوف في قتلى الطفوف، لا.ب: مكتبة المجلس بخط محمد علي بن شمس الكتاب.
- القندوزي الحنفي، سليمان بن إبراهيم (١٤١٦هـ.ق). ينابيع المودة لنبي القربى، ج ٣، قم: منظمة الأوقاف والشئون الخيرية؛ دار الأسوة للطباعة والنشر.
- الإسفرائيني، أبو اسحاق (١٣٠٣هـ.ق). نور العين في مشهد الحسين (ع)، مصر: المطبعة العامرية العثمانية.
- البحراني، هاشم بن سليمان (١٢٩١هـ.ق). مدينة المعاجز، ج ٤، طهران: دارالطبعة عليقلي خان قاجار.
- الدريندي، فاضل (١٤٢٠هـ.ق). إكسير العبادات في أسرار الشهادات، قم: ذوى القربى.
- سيهر، محمدتقي بن محمدعلي (١٣٢٤هـ.ق). ناسخ التواريخ في أحوالات سيد الساجدين إمام السجاد عليه السلام، ج ١ و ٢، تقليس: زين العابدين تقيوف.

شريف كاشاني، حبيب الله بن على مدد (۱۳۸۵هـ.ش). *تذكرة الشهداء*، قم: مدين.  
الطبرسي، احمد بن على (۱۴۲۲هـ.ق). *الاحتجاج*، قم: منظمة الأوقاف والشئون الخيرية؛ دار الأسوة للطباعة والنشر.  
طليمات، غازي (۲۰۰۷). *الشعر في عصر النبوة و الخلافة الراشدة*، دمشق: دارالفكر.  
المجلسي، محمداقر (۱۴۲۱هـ.ق). *بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار*، ج ۴۵ و ۴۶، قم: مؤسسه دار  
الفقه للطباعة والنشر.  
الموسوي الزنجاني، سيد إبراهيم (۱۴۰۲هـ.ق). *وسيلة الدارين في أنصار الحسين (ع)*، بيروت: مؤسسة الأعلمی.  
النوري، حسين بن محمدتقي (۱۴۰۷هـ.ق). *مستدرک الوسائل*، ج ۱۰، قم: مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء  
التراث.